تنغيم الجملة في القرآن الكريم

د.عبد الزهرة زبون حمود الربيعيّ
قسم اللغة العربية/ كلية التربية / الجامعة المستنصرية

تنغيم الجملة في القرآن الكريم

د.عبد الزهرة زبون حمود الربيعيّ

تمتاز لغتنا العربيّة بظواهر صوتيّة عديدة ، والتنغيم هو أحدها ، وقد عني اللغويّون العرب القدماء بهذه الظاهرة ، ولكنّ عدداً من الدارسين العرب الذين تتلمذوا للمستشرقين شكّكوا في اعتناء العرب القدماء بهذه الظاهرة ، ذلك أنّهم لم يستقرؤوا المظانّ العربيّة استقراءاً دقيقاً من أجل الوقوف عليها، وقد عرف العرب التنغيم في كلامهم ، ومثال ذلك أنّهم كانوا يستغنون عن بعض الحروف والروابط اعتماداً على التنغيم ، ومن أمثلة ذلك: (لاعافاك الله)بدلاً من (لا وعافاك الله)؛ لأنّ التنغيم والوقوف بعد (لا) ثمّ الاستئناف يغني الواو . وفي كلام العرب أيضاً ولزوم أداة النداء لها والاستغاثة تعتمد اعتماداً كلّيّاً على التنغيم؛ وهي رفع الصوت ومدّه مقترناً بأداة النداء، وإلى ذلك أشار سيبويه: (أداة النداء تلزم الاستغاثة؛ لأنّها من المواضع التي يلزم فيها رفع الصوت ومدّه ؛ فالمستغيث يبالغ في رفع صوته لتوهّمه في المستغاث به الغفلة والتراخي)(١)، وللمبالغة في تنبيهه لكون المستغاث له أمراً مهماً به(٢). وأداة النداء تلزم (الندبة)؛ لأنّها كذلك من المواضع التي يلزم فيها رفع الصوت ومدّه ، وذلك أنّهم يجتهدون في التعبير عن انفعالهم وهم يدعون من قد مات وبعُد عنهم ؛ ولذلك هم يُلحِقون آخر الاسم المدّ أيضاً مبالغة في مدّ الصوت والترنمّ به(٣). وهناك من الباحثين المحدثين العرب مَنْ أقرّ بهذه الظاهرة ، وحاولوا تلمّسها لدى اللغويّين في مظانّهم ومصادرهم . ومؤدّى هذا الخلط هو:أ للقدماء اعتناء بهذه الظاهرة أم لا ؟ وهل هم لم يصطلحوا على هذه الظاهرة وتناولوها فحسب ، ثمّ : ((إنّ التراث مكتوب تتضح فيه العلاقات بالأدوات ، وليس منطوقاً تتضح فيه العلاقات بالنغمات))(٤) . وقد وضع اللغويّون المحدثون تعريفات عديدة للتنغيم ؛ منها: ((هو تتابعات مطّردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتيّة على جملة كاملة أو أجزاء متتابعة، وهو وصف للجملة وأجزاء وليست للكلمات المختلفة المنعزلة))(٥)؛ ومنها : ((الإطار الصوتيّ الذي تقال به الجملة))(٦) ، ((وتنوّع الأصوات بين الارتفاع

والانخفاض في أثناء الكلام))(٧) ؛ وللتنغيم تأثير مهمّ في دراسة التركيب أو النحو ؛ فبه نستطيع أنْ نميّز الأساليب النحويّة بعضها من بعض كالتعجّب والاستفهام والمدح والذمّ وغيرها ؛ فـ((الجمل العربيّة تقع في صيغ وموازين تنغيميّة تقع في هياكل من الأنساق النغميّة ذات أشكال محدّدة ،فالهيكل التنغيميّ لجملة الإثبات ، وهنّ يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكّدة))(٨). ويكون التنغيم في الجملة المحدّدة ذا معنى محدّد، وله : ((دلالة وظيفيّة على معاني الجمل تتضح في صلاحيّة الجملة التأثيريّة المختصرة نحو : لا ! يا سلام ، الله أ...إلخ لأنْ تقال بنغمات متعدّدة ، ويتغيّر معناها النحويّ والدلاليّ مع كلّ نغمة بين الاستفهام والتوكيد والإثبات لمعاني الحزن والفرح والشكّ والتأنيب والاعتراض والتحقير ، وهلّم جرّاً حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تسبّب عنه تباين هذه المعاني؛ لأنّ هذه الجمل لم تتعرّض لتغيّر في بنيتها ولم يضف إليها أو يستخرج منها شيء ،ولم يتغيّر فيها إلا التنغيم ، وما قد يصاحبه من تعبيرات الملامح وأعضاء الجسم ، ممّا يعتبر من القرائن الحاليّة))(٩) ، ولم يهمل اللغويّون القدماء ما للنغمة الصوتيّة من أثر في الحركة الإعرابيّة في أواخر الكلم في الجملة؛ فالنغمة في الجملة تعدّ قرينة من القرائن اللفظيّة يتوقف عليها أحياناً مدلول الكلام، وقد تغني عن بعض الأدوات كأدوات الاستفهام وغيرها ، ذكر سيبويه:((قد نقول(هو عبدُ الله)و(أنا عبدُ الله)فاخراً أو مؤيّداً وتقول(إنّي عبد الله)مصغّراً نفسه لربّه ثمّ تفسرّ حال العبيد فتقول : أكلاً كما تأكل العبيد))(١٠)ونجد في هذا النصّ لسيبويه في جملة(أنا عبدُ الله) بين الفخر والتصغير الذي يعرَف بواسطة التنغيم الذي يظهر في اللغة المنطوقة ، ولا يظهر في اللغة المكتوبة، وكذلك يظهر أثر تنوّع النغمة في الوجه، أو في حركات المتكلّم.كذلك قول سيبويه في أثناء تحليله بيت الشاعر جرير بن عطية:

أعبداً حلّ في شُعبي غريباً ألؤماً لا أبالك واغترابا

((وأمّا (عبداً) فيكون على ضربين إنْ شئت على النداء ، وإن شئت على قوله على (أتفتخر عبداً ثمّ حذف الفعل على قوله (أتفتخر عبداً ثمّ حذ ف الفعل))(١١) ، وهنا نجد أثر النغمة الصوتيّة التي تنقل الكلام من النداء إلى الاستفهام؛ كذلك قوله:((وقد تقول (تالله!) وفيها معنى التعجّب))(١٢) والمعروف في الأساليب النحويّة أنّ(تالله)أسلوب يفيد القسم والتوكيد غيرأنّ النغمة الصوتيّة كما مثّل سيبويه إلى التعجّب ولايظهر هذا إلاّ في اللغة المنطوقة. وقوله في جملة (ماأنت وعبدُ الله)؛ فهي تعطي دلالة التحقير والتعظيم استناداً إلى النغمة الصوتيّة التي تقال بها الجملة ، ذكر سيبويه:((كأنّك قلت (ما أنت وعبدُ الله) وأنت تريد أن تحقّر أمره أو ترفع أمره))(١٣).

لقد جعل سيبويه التنغيم سبباً مهمّاً في تحديد الدلالات التي تتضمّنها الجملة الواحدة من تباين النغمة التي تنسجم والغرض الذي يريد المتكلّم إبلاغه للسامع؛ قال سيبويه : ((يقول الرجل (أتاني رجل) يريد واحداً في العدد لا الاثنين فيقال (ما أتاك الرجل)؛ أي : أتاك أكثر من ذلك أويقول

(أتاني رجل لاامرأة) فيقال: (ماأتاك رجل) أي: في قوّته ونفاذه فتقول (ما أتاك رجل) أي: أتاك الضعفاء(١٤) ؛ فالدلالات الثلاثة التي تتضمّنها الجملة الواحدة ؛وضّحها سيبويه حين أراد العدد بقوله: (أكثر من ذلك) وكانت النغمة مستوية ،وحين أراد الجنس بقوله: (أتاك الضعفاء) بنغمة هابطة ، والشيء نفسه ذكره سيبويه حين أراد أن يوضّح لنا أثر النغمةالصوتيّة في تباين زمن الجملة الواحد بقوله : (وإذا قال (هو يفعل) أي: في حالة فِعْل فإنَ نفيه (مايفعل) ،وإذا قال (هو يفعل) ولم يكن الفعل واقعاً فنفيه(لايفعل)(١٥). وهنا فرّق بالنغمة بين الإخبار عن حال الفعل الذي مثله نغمة صوتيّة صاعدة ، وكان زمن الأوّل (الحال) والثاني (الاستقبال) .

وتطرّق سيبويه إلى التنغيم حين تكلّم على الحذف في العربيّة وبيّن أنّ من دواعي الحذف (التنغيم)؛ لأنّ النغمة الصوتيّة تفصح عن المحذوف فليس من داعٍ لذكره استغناءاً بعلم المخاطب بما يعني المتكلّم ، ومن ذلك حذف الصفة ؛ قال سيبويه :((وتقول سِير عليه طويل وسير عليه نهار طويل وإن لم تذكر الصفة وأردت هذا المعنى رفعت إلا أنّ الصفة تبيّن بها معنى الرفع وتوضّحه))(١٦) . وقريباً من كلام سيبويه تكلّم ابن جنّي في التنغيم ؛ إذ قال :((وقد حذفت الصفة ودلّت الحال عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل ،وهم يريدون : ليل طويل ،وكأنّ هذا إنّما حذفت فيه الصفة لمّا دلّ من الحال على موضعها ؛وذلك أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمّلته ،وذلك أنّك تكون في مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلاً فتزيد من قوة اللفظ (بالله) وتتمكّن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها ؛ أي: رجلاً أوشحاعاً أو كريماً أو نحو ذلك وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنساناً سمحاً أو جواداً ، أو نحو ذلك وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت :سألناه وكان إنساناً لئيماً أو لحِزاً أو نحو ذلك ، فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة(١٧). وفقدان النغمة الصوتيّة جعل النحاة يقعون في تعدّد الأوجه الإعرابيّة،من ذلك إعراب (الراسخون في العلم) في قوله تعالى: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ }آل عمران/٧؛ فقد تكون لفظة (الراسخون)معطوفة على لفظ الجلالة ، وقد تكون (مبتدأ)خبرها (يقولون) ؛ذكر العكبريّ: و ((الراسخون معطوف على لفظ الجلالة وأنّهم يعلمون تأويله أيضاً و(يقولون) في موضع نصب على الحال،وقيل (الراسخون)مبتدأ و(يقولون)الخبر والمعنى أنّ الراسخين لا يعلمون تأويله بل يؤمنون به))(١٨).

وقد رجّح الفرَّاء الإعراب الثاني مستدلاً بقراءة أُبيّ وعبد الله بن مسعود (١٩)؛ ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:{ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ }يوسف/٦٥ ، قالوا: إنّ(ما)استفهامية ويجوزأن تكون نافية، ولعلّه من الوضوح بمكان أنّ نغمة الاستفهام غير نغمة النفي، والذي دعا تعدّد هذه الأوجه هو فقدان النغمة.وإذا

استقرينا عدداً من آي القرآن الكريم ؛ فإنّنا نتبيّن أثر التنغيم واضحاً جليّاً، وهناك إشارات تضمّنتها أقوال النحاة في باب النداء وباب الاستفهام ،يتّضح أثر التنغيم . والنداء عند النحاة (تنبيه المدعوّ ليُقبل عليك)(٢٠)، ومعناه:رفع الصوت ومدّه لتنبيه المنادى وحمله على الالتفات ؛ وذلك بأدوات النداء؛ وهي أصوات يستعملها المتكلّمَ حينما يريد تنبيه المنادى فيمتدّ بها الصوت ويرتفع . وهذا هو من التنغيم .والنداء كثير الورود في كلام العرب ؛ يستعملونه في أوّله كأنّه تنبيه للمخاطب ليلتفت على المتكلّم ؛ يقول سيبويه :((وإنّما فعلوا هذا بالنداء لكثرته في كلامهم ؛ لأنّ أوّل الكلام أبداً النداء إلا أن تدعه استغناءاً بإقبال المخاطب عليك ، فهو أوَّل كلَّ كلام لك، به تعطف المتكلّم عليك . فلمّا كثر وكان الأوّل في كلَّ موضع . حذفوا منه تخفيفاً، حتّى جعلوه بمنزله الأصوات وما أشبه الأصوات من غير الأسماء المتمكنة))(٢١).

وقد ورد (النداء) في قوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً }مريم/ ٥٢ ، ونجد النداء في القرآن مصاحباً في الأكثر للأمر والنهي ليجعل الناس . مؤمنين أوكفاراً . يلتفتون إلى هذا الخطاب بالاستعانة بنغمة حرف النداء (يا)كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكم} البقرة /٢١، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} التحريم/٧، و: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} الحج/٧٣،ونرى في هذه الآية أنَّ النداء قد صحب الجملة الخبريّة، ثمَّ جاءت جملة الأمر . وقد لاتأتي جملة الأمر بعدها؛ نحوَ: { أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}فاطر/١٥، ولذلك يرى الزمخشريّ أنّ كلّ نداء في كتاب الله يعقبه فهم في الدين.(٢٢)

وممّا ينغّم به من أدوات النداء ،(الهمزة) ، وهي تستعمل لتنبيه القريب المصغي إليك الذي لا يحتاج إلى مدّ الصوت في ندائه(٢٣)، والهمزة موضوعة لنداء القريب، وأنّه لا ينادى بها البعيد (٢٤) ،ومن ذلك في قراءة بعض القُرّاء في قوله تعالى : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ }الزمر/ ٩،بقراءة تخفيف (الميم) مستعملة أداة للنداء ، وقد استحسن الفرّاء في هذا الوجه يقول: ((وقوله (أمن هو قانت آناء الليل) قرأها يحيى بن وثّاب بالتخفيف . وذكر ذلك عن نافع وحمزة وفسّروها ؛ يريد : (يامن هو قانت) وهو حسن ،العرب تدعو بـ(ألف) كما يدعون بـ(يا) ، فيقولون : (يازيد أقبل) و(أزيد أقبل) وهو كثير في الشعر ، فيكون المعنى مردوداً بالدعاء كالمنسوق؛ لأنّه ذكر الناسب الكافر ، ثمّ خصّ الصالح بالنداء ،كما تقول في الكلام :(فلان لا يصلّي ولايصوم فيامَنْ يصلّي ويصوم أبشر) . فهذا هو معناه (والله أعلم) وكون (الهمزة) في الآية للنداء بعيد ،لأنّه ليس في التنزيل نداء بغير الأداة(يا) والأقرب الأقوى أن تكون للاستفهام الذي يفيد التنبيه (٢٥). وتكون (من) مبتدأ ، وخبره محذوف لدلالة الكلام عليه ، تقديره :أمنْ هو قانت كمن ليس كذلك))(٢٦)؛ فيتّضح التنغيم من صوتها الذي تحوّل من النداء إلى الاستفهام .

وفي إضافة المنادى إلى ياء المتكلّم نجد التنغيم واضحاً ؛ ومن ذلك ما نراه في لفظة (يا أبت) بالتنغيم نسمع المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجمّ والخلُق الحسَن؛ ولا يخفى علينا أنّ المُجامِل والمُلاطِف ينغّم كلامه وينعّمه ليستعطف به المخاطب ، ويتوسّل إليه، يقول الزمخشريّ في قوله تعالى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً{٤١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً{٤٢} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً{٤٣} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً{٤٤} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً{٤٥} قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً}{٤٦} مريم/٤١-٤٦ ،صدّر كلّ نصيحة من النصائح الأربع بقوله : (يا أبت) توسّلاً إليه واستعطافاً . وأقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغِلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل (يا أبت) بـ(يا بُني)(٢٧).

إنّ إقبالك على المخاطب بالنداء ، وإضافته إلى نفسك ، كما في قولك (ياأخي) و(يا صديقي) يشعره بالتحنّن عليه ، وأنّك منه وهومنك ، فيكون ذلك سبباً لقبول ما يُلقى إليه ، بخلاف مالو ناديته باسمه، ومن الملاحظ أيضاً في لفظة (ياأبتِ) هو أنّ ياء المتكلّم قد حذفت لزيادة التوسّل والاستعطاف، فكأنّما إبراهيم يريد أنْ يُشعر (عمّه)أنّه قريب إلى نفسه ، فكان لفظه قليل الحروف، فأتت صورة صوتيّة قريبة ، فلو مدَّ . أبتي . بالياء لكان بعيداً عنه .ومثل ذلك في القرآن كثير ؛ومنه: {يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُون} هود/٥١؛ فالنبيّ هود(عليه السلام)حينما كان يدعو قومه كانت جوانحه مليئة عطفاً ورحمة فاستعمل لفظاً قليل الحروف وحذف منه ياء المتكلم ليقرّبهم إلى نفسه. وكذلك قوله تعالى{ ياعِبَادِ فَاتَّقُونِ}الزمر/١٦؛ف إنّ الله تعالى رؤوف رحيم بالناس لايريد ظلماً للعباد؛ فخاطبهم تقريباً إليه؛ ليتّقوه ويتجنّبوا عذابه الشديد . ولستُ في هذه القضية أذهبُ إلى قول النحاة ؛(تحذف (الياء)تخفيفاً لكثرة الاستعمال ،وإبقاء الكسرة دليل عليها) .وكان عليهم أنْ (٢٨) ينظروا إلى مسألة التنغيم في ذلك (٢٩).

وقد ذكر الزمخشريّ أنّ حذف أداة النداء منه تقريب للمنادى من المتكلّم وتلطيفه لمحلّه عنده، وقد حذف حرف النداء اعتماداً على التنغيم، وإنْ لم يصرّح به يقول: في قوله تعالى: { يوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} يوسف/٢٩، (يوسف) حذف منه حرف النداء لأنّه منادى قريب للحديث . وفيه تقريب له وتلطيف لمحلّه(٣٠) ،ولاشكّ في أنّ أداة النداء يجوز حذفها إذا لم يكن بمفردها مناط المعنى ، فتحذف الأداة ، ويؤمن اللبس في الكلام أو النصّ إذا كانت القرائن الأخرى تتظافر وتتعاضد في أداء المعنى؛ فتغني عن ذكر الأداة؛ لذلك قد يستغنى عن أداة النداء بقرينة قصده ونغمته، فتسقط الأداة ويبقى النداء مفهوماً(٣١) .

وقد جاء حذف أداة النداء في القرآن الكريم ، وهو يكثر في المنادى المضاف(٣٢) {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} يوسف/١٠١، ولاسيّما في نداء (الربّ) سبحانه) . نحو:{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً} مريم/٤، والحكمة في ذلك كما يرى الزركشيّ : ((دلالته على التعظيم والتنزيه،لأنّ النداء يتشرّب معنى الأمر،لأنّك إذا قلت(يا زيد) فمعناه :أدعوك يا زيدُ ، فحذفت (يا) من نداء (الربّ) ليزول معنى ألأمر، ويتمحّض التعظيم والإجلال(٣٣) . ومن التنغيم ؛ يقول الزمخشريّ في قوله تعالى : {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} يس/٣٠،(يا حسرة على العباد) نداء للحسرة عليهم كأنّما قيل لها : تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي من حقك أن تحضري فيها ،هي حال استهزائهم بالرسل ، والمعنى : أنّهم أحقاء بأنْ يتحسّرعليهم المتحسّرون. ويتلهّف على حالهم المتلهّفون ، أوهم متحَسّرٌ عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين . ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة ، في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وقراءة مَنْ قرأ (يا حسرتا) تعضّد هذا الوجه لأن المعنى : ياحسرتي ، وقرئ (يا حسرة العباد) على إجراء الوصل مجرى الوقف (٣٢) . ويقول ابن جنّي في القراءة الأخيرة : ((إنّ قراءة مَنْ قرأ (يا حسرة على العباد) ـ بالهاء ساكنة ـ إنّما هي لتقوية المعنى في النفس وذلك أنّه في موضع وعظ وتنبيه، وإيقاظ وتحذير ، فطال الوقوف على (الهاء) كما يقوله المستعظم للأمر ،المتعجّب منه الدالّ على أنّه قد بهره وملك عليه لفظه وخاطره ، ثمّ قال من بعد (على العباد) عاذراً نفسه في الوقوف على الموصول دون صلته . وضعف الإعراب وتحجّره على جملته ليفيد السامع منهم ذهاب الصورة بالناطق))(٣٣) ويقول أبو حيّان في قوله تعالى:{قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَاا}لأنعام/٣١، : ونادراً (الحسرة) إن كانت لا تجيب ؛ على طريق التعظيم؛ قال سيبويه: ((وكأنّ الذي نادى(الحسرة)أو(التعجّب) أو(السرور) أو (الويل) يقول : اقربي أو احضري فهذا أوانك وزمنك))(٣٤)،وفي ذلك تعظيم للأمر على النفس وسامعه إنْ كان ثَمّ سامع ، وهذا التعظيم على النفس وهو المقصود أيضاً في نداء الجمادات كقولك:(يادار)و(ياريح)،وفي نداءمالايعقل كقولهم:(ياجمل)(٣٥).

وذهب ابن فارس إلى أنّ النداء في قوله تعالى :(يا حسرةً على العباد) يفيد معنى التلهّف والتأسّف(٣٦) . ويقول الزمخشريّ في قوله تعالى : {ويَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً}الكهف/ ٤٢، يجوز أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما كان منه ودخولاً في الإيمان أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولّى الله ويؤمن به كلّ مضطرّ يعني أنّ قوله : (يا ليتني لم أشرك بربي أحداً) كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً ممّا دهاه من شؤم كفره ،ولولا ذلك لم يقلها .(٣٦)وقريب من هذا المعنى كما في قوله تعالى : {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا

مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} الكهف/٤٩ ،وفي كلّ ذلك نرى التنغيم واضحاً.

ومن التنغيم قلب ياء المتكلّم ألفاً ، في نحو قوله تعالى : {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} الزمر/ ٥٦، ؛ فالألف في (حسرتا) إنّما هي بدل من ياء (حسرتي) أبدلت (الياء)ألفاً هرباً إلى خفة الألف من ثقل الياء.(٣٧) ومن استعمال النداء في معنى التحسّر ،والقراءة بنغمة صوتيّة حزينة تشيع فيها الكآبة ، فويُسْمَع منها التحسّر ما نجده في قوله تعالى: { وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً} النبأ /٤٠.

أمّا فيما يتّضح عليه أثر التنغيم في باب الاستفهام ؛ فمنه ما ورد باستعمال الهمزة للاستفهام؛ فقد ورد استعمالها في تراكيب كثيرة ، ولم يصرّح فيها بخبر المبتدأ اعتماداً على التنغيم فمن ذلك : {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً} فاطر/ ٨، وقوله: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} الزمر/ ٢٢، ومع ذلك فقد جاء الخبر مصرّحاً به في تراكيب أخرى مماثلة ومع بقاء تلك النغمة الصوتيّة للاستفهام ؛ وذلك في نحو قوله تعالى : { أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} محمّد/١٤، وقوله تعالى :{أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ }آل عمران/١٦٢، وممّا ورد باستعمال أداة الاستفهام . ولكنّ معنى الآية يعتمد على النغمة الصوتيّة التي تؤدّى بها،وهو سؤال إنكاريّ ،قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} التحريم/١، ومثله ما قاله الزمخشريّ في قوله تعالى : ((كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم))البقرة /٢٨ : معنى : (الهمزة) التي في (كيف) مثله في قولك : أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ، وهو الإنكار والتعجّب(٣٨) . وممّا يتّضح في آيات كثيرة أثر التنغيم استغناءاً عن أدوات الاستفهام ، واعتماداً على التنغيم . من قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }البقرة/١٢٤ ، والسؤال واضح في قوله (ومن ذريتي) ؟ جوابه : لاينال عهدي الظالمين ، وهو استفهام استعمل فيه التنغيم لإبراز الاستفهام ، أو قوله تعالى : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ}البقرة/٢١٧ وهنا سؤال مَن يجهل إلى مَنْ يعلم أو يرتجى منه الجواب . ومن قوله تبارك وتعالى: { يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِين}: التوبة/ ٦٢، فقد حذف حرف الاستفهام اعتماداً على التنغيم .ومن ذلك أيضاً:{ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ} الشعراء/ ٢٢ ، وقوله تعالى :{هَذَا رَبِّي }الأنعام/ ٧٦،وقراءة : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة / ٦ ،بهمزة واحدة ومن غير مدّ (٣٩). فالتنغيم هو الذي يوضّح الاستفهام في تلكم الآيات ، وهي آيات حُذفت فيها همزة الاستفهام للتنغيم ؛ وليس عند أمن اللبس(٤٠) ولولا لوجود ما يقال يدلّ عليها الهمزة كما يزعم النحاة (٤١).يقول د.قيس الأوسيّ:((ومع عدم وجود قرينة لفظية في الكلام يمكن الاستغناء

بقرينة (النغمة)عن ذكر أداة الاستفهام .و(النغمة)هي الأطارالصوتيّ الذي تقال به الجملة في السياق . فالجمل العربيّة تقع في صيغ وموازين صوتيّة تنغيميّة ذات أشكال محدّدة فالهيكل التنغيميّ الذي تأتي به الجملة الاستفهاميّة وجملة العرض ، غير الهيكل التنغيميّ لجملة الإثبات ،وهنّ يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكّدة، فلكلّ جملة من هذه صيغة تنغيميّة خاصّة بها تعين على الكشف عن معناها النحويّ))(٤٢).

الهوامش:

١-الكتاب:٢/ ٢٣١،٢٢٠ ،وينظر المفصل :٢/ ١٦.

٢-ينظر شرح الكفاية : ١/ ١٦.

٣-ينظر الكتاب :٢/ ٢٣١،٢٢٠، والمقتضب ٤/٢٦٨،وشرح المفصل١٦/٢.

٤-ينظر اللغة العربية معناها ومبناها :٢٢٦/ وفي النحو العربيّ نقد وتوجيه : ٢٧٥-٢٧٦.

٥-دراسة الصوت اللغويّ .أحمد مختار عمر: ١٩٤

٦-اللغة العربيّة معناها ومبناها : ٢٢٦.

٧-سيكلوجية اللغة: نقلاً عن المنهج الوصفي في كتاب سيبويه :.٧٧

٨-اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٢٦

٩-اللغة العربية معناها ومبناها ٢٢٨

١٠-الكتاب:٢/٨٠.

١١-الكتاب: ٢/.٢٢٨

١٢-الكتاب : ٣/٤٩٧.

١٣-الكتاب : ١/٣٠١.

١٤-الكتاب :١/٥٥.

١٥-الكتاب: ٣/١١٧.

١٦-الكتاب :٣/٢٢٠

١٧-الخصائص ٢/٣٧ وما بعدها .

١٨:إملاء ما منّ به الرحمن :١/١٢٤.

١٩-معاني القرآن : ١/١٩١.

٢٠-الأصول في النحو :١/٤٠١ وينظر شرح المفصل :٨/١٢٠.

٢١:الكتاب : ٢/٢٠٨ ، وينظر البرهان:٢/٢٢٥.

٢٢-ينظر الكشاف :١/٢٢٤،والبرهان : ٢/.٣٣٤

٢٣-الكتاب : ٢٩٩-٢٣٠، والمقتضب :٢٣٣/٤،والكشاف : ١/٢٤٤.

٢٤-ينظر الكتاب :٢٣٠/٢، والأصول في النحو : ٤٠٠/١-٤٠١،وشرح المفصل : ١٥/٢ ، ١٩٨/٨.

٢٥-معاني القرآن للفراء : ٢/.٤١٦

٢٦-ينظر شكل إعراب القرآن :٢٥٨/٢.

٢٧-ينظر الجني الداني:٣٦،والكشاف: ٢٦٠/٣.

٢٨-الكشاف: ٥١١/٢.

٢٩-ينظر البحر المحيط: ٢٠٥/١-٢٠٦.

٣٠-ينظر الكتاب : ٢٠٩/٢،والمقتضب : ٢٤٥/٤-٢٤٦،وشرح المفصل ١١/٢،وشرح ابن عقيل ٢١٦/٢.

٣١-الكشاف: ٢١٦/٢.

٣٢-اللغة العربية معناها ومبناها :٢٢٠-٢٢٩

٣٣-ينظر شرح المفصل : ١٥/٢.

٣٤-البرهان : ٢١٣/٣.

٣٥-الكشاف: ٣٢٠/٣-٣٢١.

٣٦-المحتسب: ٢٠٨/٢-.٢١١

٣٧-ينظر الكتاب : ٢١٧/٢-٢١٨.

٣٨-البحر المحيط : ١٠٧/٤.

٣٩-ينظرالصاجي:١٧٨

٤٠-الكشاف : ٤٨٥/٢-٤٨٦.

٤١-ينظر المحتسب : ٢٣٧/٢-.٢٣٨

٤٢-الكشاف : ٢٦٩/١.

٤٣-ينظر المحتسب : ٥٠/١،والصاجي:١٥٤

٤٤-ينظر مغنى اللبيب : ١٥/١.

٤٥-إعراب القرآن : ٣٥٢/١-٤٦٠ أساليب الطلب ،قيس الأوسيّ : ٤٣٤-٤٣٥